الفصل الرابع

الدور القيادي للقديس يوسف

1. القيادة عند مار يوسف

لقد استطاع القدّيس يوسف أن يُصبح قائداً، وأن يكون سببَ التّغيير من المجهول إلى النّجاح في حياته وفي حياة الآخرين، وذلك بثقته المطلقة بالمشيئة الإلهيّة بواسطة الملاك. فتعلّم المهارات اللازمة لذلك، لأنّ القادة يصنعون أنفسهم بالإعتماد على الله الخالق وعلى الذات والثقة بالآخرين، ومن ثمّ يتّخذون القرارات الجريئة بدون تراجع في حسم الأمور الصّعبة، والمُقلِقَة في بعض الأحيان. فالنجاح والتميّز في القيادة لا يتحقّقان بدون مُساعدة الآخرين. هكذا كان دور الملاك في حلم يوسف سببًا لمساعدته كقائد في الوصول إلى إنجاح المشروع الخلاصيّ.

لم يكن يوسف محتاجاً لقبول تلك المهمّة القياديّة بهدف التّرقية أو الشهرة، أو الحصول على منصب عالٍ، أو الثراء، بل كان همّه أن يُصبح قائداً ناجحًا في تحمّله المسؤوليّة، وفي قبول إرادة الله حين قال له الملاك "لا تخَفْ أن تأخذ مريم زوجةً لك". بهذه العبارة أزيلَ العبءُ الثقيل الذي كان يرزح تحته يوسف الصدّيق، إذ استطاع على الفور اتخاذ القرارات بثقة مطلقة وبإيمانٍ بكلمة الله المعلنة وبالمشروع المُقترَح له. فهذه هي أهمّ المعارك القياديّة التي يخضع لها، إذ استطاع التغلّب على القلق الذي تسبّب به هذا الحبَل السريّ، ولم يعُد يخاف المجتمع الذي يعيش فيه، وما تفرضه الشريعة من قوانين صارمة.

إنّ القيادة الناجحة لا تعتمد على الإغراء الماديّ، وعلى المناصب والألقاب، ولا تعتمد على الظّروف إنْ كانت جيّدة أم لا، بل تعتمد على القائد الذي يعمل بصمت وبجرأة على تنفيذ المطلوب منه بشجاعة وثقة تامّة بالذات، ومن دون ارتباك. وتعتمد أيضًا على شخصيّته القياديّة في تصريف الأعمال، لكي يبذل أقصى ما لديه من قُدرات وطاقات فيتقبّل عمله برحابة صدرٍ وبجُرأة لا حدّ لها. لهذا نلاحظ أنّ القديس يوسف هو

القائد الناجح الذي استطاع أن يتّخذ قرارًا حاسمًا منذ البداية في موضوع الخطبة، وأن يقبل بمريم زوجةً له بدون تردّد، تاركاً الخوفَ والقلقَ جانبًا. لذلك نراه يُسرع في عقد الزواج لكي يحافظ على سمعة مريم ويحميها من ألسنة الآخرين وممّا تفرضه القوانين. فهذه هي المرّة الأولى التي يتّخذ القديس يوسف موقفَ القائد الحامي لمريم، فكان مُحافظًا على سرّها وسرّ أمومتها البتوليّة.

2. القيادة عند القديس يوسف هبة من الله

من خلال النصوص الإنجيليّة يتّضح لنا أنّ للقديس يوسف شخصية قيادية، لأنّ القيادة في الحقيقة هي من أجل الخدمة التي تتمّ من خلال إظهار الآخرين كفريق أو عائلة محبّة ومتماسكة. إنّ شخصيّة القديس يوسف الخادم الأمين والصادق الذي لا يبحث عن نفسه، بل يسعى إلى تنفيذ المشروع بكلّ دقّة وتنفيذ أوامر الربّ في التدبير الخلاصيّ. فالشخصيّة القياديّة الخادمة هي قويّة وإنسانيّة. ففي جميع الأحداث نرى أنّ شخصيّة القدّيس يوسف شخصيّة قويّة. وهو ليس إنسانًا ضعيفًا أمام الحياة واضطراباتها، بالعكس فهو يعرف كيف يواجه المشاكل، وكيف يتدخّل في حلّها في الأوقات الصعبة. ويستطيع التخطيط للخروج من الأوضاع الصّعبة التي تواجهه. فهو إنسان قياديّ يعرف أن يتحمّل المسؤولية التي سلّمت له بكلّ أمانة وثقة بأنّه قادر على المواجهة. فأنا شخصيًّا عندما أتأمّل في دور هذا القديس في حياة مريم ويسوع فإنّي أتخيّله شابًّا قويًّا حكيمًا يعرف كيف يُدير الأحداث بصمت، ويجعل من الآخرين موضع الأحداث المهمّة، فقد كان القديس ذا شخصية رائعة قلبًا وقالبًا. إذ كان لطيفًا مع الآخرين في تعامله معهم. وكان معروفًا في بيت لحم بيوسف الصدّيق البارّ.

عندما اقترن يوسف بمريم، وعلم بسر أمومتها الإلهيّة، عاش بقربها، محترِمًا إرادة الله في بتولية أمّ يسوع. وقد أراد الله أن تعرف الأجيال أنّ مريم كانت طاهرة وعفيفة، بدون أيّ خطيئة، فهي حُبِل بها بدون أيّ

دنس. ونحن نعلم أنّ القيادة هي هبة من الله لشخص القديس يوسف الذي كان يعرف الله أنّ هذا القديس هو أهلٌ لهذه الهبة. فهو سوف يخدم بروح متواضعة، فلم يبحث عن اللّقب أو المركز. بل كان همّه حبّ الله وخدمة الأمانة التي سلّمها الله له. لهذا عرف القديس عظمة الحبّ الذي أحبّه الله من خلال تسليمه ابنه الوحيد.

أراد الله أن يبيّن لنا أنّ القيادة هي هبة وإكرام منه. فإكرامه بنسب يسوع المسيح له، ليكون هو الأب له كما جاء في الإنجيل من خلال نص "فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ" الَّذِي تَفْسِيرُهُ: "الله مَعَنَا" (إنجيل متى 1/ 21). وقد أعطاه الله أيضًا حقوق الأبوّة وتسمية الطفل أيضًا. فالله أعطى ليوسف البار هذا الشرف العظيم ليكون الأب الأرضيّ ليسوع رغم أنّه ليس من صلبه، وإن كان القديس هو المربّي فقط، فإنّ الربّ منحه بركة الأبوة من خلال التبنّي. فالقديس يوسف كان الأب والقائد للعائلة المقدّسة، كما تشهد القديسة مريم حينما خاطبت يسوع قائلةً: "لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنّا نطلبك معذّبين" (لوقا 2/ 48). حتى مريم العذراء تعترف بقيادة القديس للأحداث. ففي جميع الحالات كنّا نلاحظ أنّ الإنجيل يذكر أنّ الملاك يعطي الأوامر للقديس يوسف، ولكنّه لا يذكر أنّ الملاك يطلب من العذراء حماية يسوع من الاضطهادات، بل يطلب من القديس كلّ ما يريد فعله. وهذا دليل على أنّ القيادة كانت هبة من الله ليوسف. ففي الإنجيل آية أخرى تنقل لنا نظرة المجتمع إلى أبوّة يوسف، ونوع العلاقة بينهما. فقد كانت العلاقة أمام الجميع علاقة شرعية "فَكَانَ الْيَهُودُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ.. وَقَالُوا: "أَلَيْسَ هذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ، الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ؟" (إنجيل يوحنا 6/ 41-42).

من حيث دوره الأبويّ يكشف يوسف أنّ الحاجة القويّة والملحّة لحماية ولده ولتأمين إحتياجاته ومساعدته في نموه، هو أن يقوم بتعليمه مبادئ الشريعة، ويعرّفه إلى الشرائع والطقوس الدينيّة، ويُشركه معه في مهنته ويعرّفه إلى المجتمع والهيكل. فهذه هي المهمّة القياديّة الأبويّة. إنّها خبرة رائعة بالنسبة إلى يوسف كونه القائد المدبّر لأمور العائلة، بحسب المخطّط الذي رسمه الله له، ضمن التدبير الخلاصيّ. فعبّر عن أبوّته البشرية

بكلّ حبّ وحنان دون أن ينسى أنّ الطفل هو ابن الله الوحيد. وكان قلب يوسف يفيض حبًّا أبديًّا يفيض من حبّ الله للبشريّة. هكذا سوف يتّضح من خلال الإنجيليّين أنّ الخطر الذي كان يُخيف يوسف كثيرًا والمتعلّق بمريم ويسوع قد زال بعد تحمّله المسؤوليّة القيادية أمام الربّ ذاته. فلا خوفَ بعد الآن، بل سوف يظهر لكلّ العالم بأنّه والد يسوع. وأنّ مريم هي الأم والزوجة بحسب ما تذكر لنا الأناجيل.

إذاً، القديس يوسف هو أبو الطفل الذي اعطاه الله له. عندما نتأمل في الآيات القليلة التي في الكتاب المقدّس عن يوسف، نكتشف بأنّ الله قد اختاره لأنّه كان مثالاً للرجل الصّالح والصّادق الذي يحبّ الله بثقة وإيمان. فهو الذي امتاز بالبرّ والخضوع لإرادة الله، والعمل بحسب مشيئته، وطاعته فيما أراد منه أن يعمل أكثر من الكلام أو الكرازة بإرادة الله. فهذه المهمّة هي بالتأكيد مهمّة فريدة وثمينة بحدّ ذاتها في حماية وتوجيه يسوع، وفي تعليمه له أثناء نموه في "القامة، والحكمة والنعمة".

يبقى القديس يوسف نموذجاً ومثالاً صالحًا لجميع الآباء والقياديّين والمربّين والمعلّمين، وخصوصًا لكلّ أب وربّ أسرة أو أيّ معلم يعمل في سلك التربية والتعليم، وتوجيه الآخرين لحياة أفضل إرضاءً لله، كما يبقى أفضل نموذج للكاهن وللمكرّسين في حكمته وصمته وخدمة الآخرين بكلّ إخلاص. ولمَنْ يكرّس حياته لخدمة الله والآخرين.

اليوم في عالمنا هذا المليء بكلّ أنواع الظلم والقوّة والكبرياء والفوضى نحتاج إلى قياديّين على مثال القديس يوسف، بأن يكونوا آباء ومربّين صالحين. همّهم الوحيد هو تنفيذ إرادة الربّ. فالقديس يوسف هو نموذج القائد والمربّي والأب الذي يحكم ويدير الأحداث بكلّ محبّة وحكمة وصمت، من دون أن يعرّض أحدًا لخطر أو أن يخرج خارج تدابير الله.

3. يوسف هو القائد في اتخاذ القرار

إنّ عمليّة إتخاذ القرار هي القلب النابض للقيادة. فالقائد في النّهاية هو متّخذ القرار، وإذا كان يتميّز بشيء عن الآخرين فهو يتميّز بأنّه "متخذ قرار". ومن هنا نعتبر أنّ إتخاذ القرار هو جوهر العمليّة القياديّة. من حيث التخطيط لمسيرة أيّ عمل أو مشروع، فالقرار هو الذي سوف يحدّد ما يجب أن يعمله الفرد في موقف ما، وذلك بعد التفكير والتخطيط والتنظيم للمواقف التي سوف يتخذها من القرارات التي يمكن إتباعها، فإنّ القرار الذي كان على يوسف اتخاذه بعد الحلم، يوضح لنا أنّ هناك خطوات سوف يتّخذها القديس كأيّ قياديّ آخر. لهذا نراه قد إتّخذ قراراً بأن يأخذ مريم وهي حبلى إلى بيته بدون خوف. ومن المؤكّد بأنّ يوسف بعد إتخاذه مثل هذا القرار كان عليه أن يتّبع خطوات عدّة للسّير في إكمال المخطّط الخلاصيّ الذي سُلِّم إليه. لكن، لا ننسى بأنّ القياديّ الناجح هو مَن يتّخذ القرار، وبعد ذلك تأتي خطوات التنفيذ. وليس العكس كما فعل القديس يوسف، لأنّ ذلك يتطلّب من أيّ قياديّ ناجح أن يعرف ما هي الخطوات التي سوف يسير عليها بعد إتّخاذه القرارات التي اعتمد عليها.

وخلاصة الأمر، فمن خلال اتخاذ القرار استطاع القديس يوسف أن يفهم دعوة الله له عبر الخطوات الآتية:

1- عندما كان يوسف مرتبكًا ويفكر في نفسه تدخّل الله "وفيما هو متفكّر في ذلك، إذا بملاك الربّ تراءى له في الحلم قائلاً: يا يوسف بن داود لا تخَفْ أن تأخذ امرأتك مريم إلى بيتك" (متى 1/ 20). فشعوره بالمشكلة التي كانت سوف تواجه أمّ يسوع والإحساس بأنّ هناك مشكلة ما سوف تواجهها في حال الإعلان عن الحبّل السريّ، وما سوف تعانيه من الثرثرة والحكم عليها وعلى سمعتها من المجتمع والأهل في ذاك الوقت، لهذا أسرع يوسف في اتخاذ القرار بقبول مريم وتلافي المشكلة، والزواج منها، بحيث أخذ القرار المناسب "ففعل يوسف كما أمره ملاك الربّ، فأتى بامرأته

إلى بيته" (متى 1/ 24). هكذا كان ليوسف أن لا يتعذّب ولا تتعذب مريم العذراء من الحكم عليها، وعلى حبلها السريّ. لهذا اتخذ قراره الجريء بأن يكون إلى جانبها في مسيرة الخلاص.

2- استطاع يوسف تحديد المشكلة في ضوء المعلومات والبيانات التي تمّ جمعها من كلمات الملاك له في الحلم، وبخاصة قوله "لا تخف"، إذ بهذه العبارة وحدها فهم القديس يوسف طبيعة المشكلة وأبعادها، فأزيلَ العبءُ الثقيل عن كتفَيْه، وتوضّحت أمام ناظرَيْه صورة المشروع الإلهيّ الذي خطّط له الله عبرَ زواجه من مريم لحماية الطفل يسوع الذي سينفّذ المخطّط الخلاصّيّ.

3- كان اختيار القديس يوسف هو الأفضل لحلّ المشكلة، فقد جعل من حياته مع مريم العذراء منطلقًا جديداً وتكريسًا شرعيًّا واجتماعيًّا لرسالة الله لهما.

إذاً، يتبيّن لنا أنّ القديس يوسف كان، في حياته، رجلاً وفيًّا، وقائداً شجاعًا يعرف متى يتّخذ القرار المناسب، ومربّيًا ناجحاً يهتمّ بعائلته، إذ كان يسهر على ابنه، يعلّمه مهنة النجارة، ويرشده إلى أمور الحياة الإنسانيّة، ويصوّب سلوكه، ليكون قادراً فيما بعد على التبشير بمخطّط الله الذي أحبّ العالم وأرسل ابنه الوحيد ليُنقذه من الخطيئة.

4. يوسف القائد من خلال الأحلام

يظهر في إنجيل متّى أنّ إرسال الملاك في الأحلام هي إحدى وسائل التواصل ونقل البيانات بين الله والشّخص المدعوّ لتكميل رسالة أو مشروع ما. والمُلاحظ أنّ الله عادة ما يكشف من خلال الأحلام والرؤى

خططَه لمُختاريه ودورهم الذى سيقومون به لتنفيذ هذه الخطط. فهناك، مثلاً، ستة حوادث لرسائل سماوية جاءت عن طريق الأحلام، خمسٌ منها تختص بحوادث طفولة يسوع. ومن تلك الرسائل الخمس هناك أربعة أحلام ليوسف وواحدة للمجوس. فالأحلام التي جاءت ليوسف كانت تحقيقًا للنبوءات عن ألقاب ستطلق على السيد المسيح من ان اسمه سيكون "يسوع" (متى 1/ 25)، و"ابن الله" (متى2/ 15)، و"الناصري" (متى 2/ 23).

لقد ذكر القديس متى فى إنجيله كيف أنّ القديس يوسف قد استقبل تلك الأحلام أو الرسائل السماويّة التى تدلّ على النعمة التى حازها هذا القديس من استقبال تعليمات الربّ له كما استقبلها آباؤه أو مَن سبقوه من أنبياء العهد القديم من قبل.

لقد استقبل القديس يوسف رسالة أوّلية عمّن هو الطفل يسوع الذى هو من الروح القدس والذى جاء ليخلّص شعبه من خطاياهم، ثم تبعها برسالات أخرى عن كيفية تعاونه فى عمل الخلاص بحراسته وحمايته للطفل وأمّه. إنّ هذه الطريقة الفريدة عن الإتصالات السماويّة هى تلك التى جاءت للقديس يوسف، ولهذا يمكن ان يُطلَق عليه أنّه "رجل الأحلام"، وهو نفس اللّقب الذي أُطِلق من قبل على يوسف الصِدّيق كما جاء فى سفر التكوين "هوذا صاحب الأحلام" (تك 37/ 19).

من هنا نستطيع القول إنّ الأحلام هي ميزة يتمتّع بها أيّ قائد لديه مشروع، وعليه تنفيذه أو أيّ ربّ عائلة، وعليه واجب العناية بها. ذلك لأنّ الأحلام تساعد على تنظيم الخطوات من أجل مسيرة الحياة، وتدفع القائد إلى التفكير في الإبتكار من أجل العائلة، وتخطيط الخطوات التي سوف تخلق له القدرة على الحماية والإبداع في الخدمة.

إنّ الأحلام هي تجسيد لمعرفة كيفيّة تنظيم الواقع، ولما يُمكن أن يكون عليه من الصّدق. إنّها صورة لواقع مطلوب منه التنفيذ عمّا هو للمستقبل، أي التوجُّه نحو المستقبل، مع وجوب الإنتباه إلى التفاصيل المهمّة. فالقائد يحتاج إلى الدقّة لتكتمل الأحلام. فالقوّة عند رجل الأحلام تكون قوّة خارقة.

إنّ أنواع الرسائل في كلّ تلك الأحلام تكون غالبًا، متشابهة مع تلك التى جاءت للقديس يوسف، من حيث مضمونها أو تفسيرها. فهى تحمل رسالة عميقة وغريبة تتطلّب منه الثقة والإيمان بالمضمون.

لقد ذكر القديس متى في إنجيله كيف استقبل القديس يوسف تلك الأحلام أو الرّسائل السماوّية التي تدلّ على النّعمة التي نالها هذا القدّيس من خلال استقباله لتعليمات الربّ له، مثلما استقبلها آباؤه أو مَنْ سبقوه من أنبياء العهد القديم من قبل.

5. القديس يوسف القائد في الأزمات

إنّ إتخاذ القرار يعني الإقتداء بمسيرة حياة كاملة، وليس للحظة فقط أو موقف معين وينتهي الأمر. فحين قام يوسف من النوم واتخذ قراراً بأن يجعل مريم زوجة له ورفيقة دربه، رغم حبلها السريّ غير المعروف آنذاك كان قراراً مسؤولاً. وإذا تأملنا في الأناجيل جيّدًا نلاحظ أنّ يوسف إتخذ القرار الأساسيّ الذي هو الإتكال على الله في حياته كلّها والتسليم لإرادته، رغم الذي سوف يحدث من المشاكل والأزمات التي تعرقل المسيرة والإضطهادات التي سوف يواجهها من العظماء والملوك مثل هيرودس وغيره من الذين سوف يصادفهم في حياته.

كان يوسف يعرف ما معنى أن يتخذ قراراً مصيريًّا، كأنّه شابٌ في مطلع عمره. وأنّ قراره هذا سوف يواجه أزمات أخرى وقرارات قد تغير حياته وتقلبها رأسًا على عقب. فالمهمّ عند القديس هو الحقيقة التي يستسلم لها، وهي أن يقف أمام الله بكلّ كيانه وضعفه وفقره الذي كان يعاني منه. فاتخاذ مثل هذا القرار له طريق واحد ألا وهو الحبّ بكلّ إخلاص وثقة.

عرف يوسف حبّ الله من خلال إرادته في خلاص الإنسانيّة، ومن خلال المخطّط الإلهيّ، وحماية الله لهم من الأخطار في كلّ مرة كان الله يرسل ملاكه لينبّهه إلى الصعوبات، ويرافقه في رحلاته. لذلك آمن يوسف بأنّ الله هو أصل المحبة، ومن ثم مريم ويسوع هما نتيجة حبّ الله من أجل البشرية كلّها وخلاص الإنسان

من الخطيئة. فالقديس يوسف هو صاحب قرار اكتشفه دون أي تردد بعد أن استمع إلى كلام الملاك في الحلم بحرص شديد، وتعمّقت كلمات الله في قلبه، وأخذ كلام الملاك بجدّيّة ووقار. ولم يعلق على ما سمعه في الحلم، بل آمن بكلمة الله وصدّق كل ما قيل له عن القديسة المباركة مريم العذراء وحبلها بشخص يسوع.

لقد وثق القديس يوسف بأنّ كلمة الله صادقة بالرغم من أنّ ما حدث يفوق العقل البشري ويصعب تصديقه، أمّا المؤمن فالأمر يختلف عنده. فإيمانه يجعله يؤمن بكلمة الله، فيوسف المؤمن صدّق ما قيل له من قبل ملاك الرب. في كلّ الظهورات التي كانت تحصل له في الحلم من خلال الملاك وبكل ما كان يأمره الرب كان القديس مطيعًا في كلّ الأحداث والأزمات أي أنّه كان رجل إيمان، رجل وثق بالله، وآمن بما حدث مع القديسة مريم، فكان قراره نتيجة حبّه العظيم، وإيمانه والتواضع الذي كان يمتلك كيانه.

عرف يوسف الحبّ من خلال حبه لخطيبته وابنها دون ان يسأل أو يشكّ بها ولم يفكر بأنّها لا تستحقّ الرحمة والتعاطف مع واقعها وظروفها ولم يحاسبها، بل تذهب لزيارة خالتها أليصابات، من دون أن يناقشها عن حبلها قبل الزواج. فكان صاحب قرار في أثناء حدوث المشكلة ولم يعترض، بل واجه كلّ ذلك من أجل حياة مريم ويسوع دون إعلان عن المشكلة. ولهذا كان قراره داخليًّا، وملتصقًا بفكره، وما يدور في مخيّلته، من دون البوح به.

6. الشكّ والفرح في حياة القديس يوسف

كان يوسف رجلاً محافظًا على الشريعة وملتزمًا دينيًّا بكلّ الشعائر والمناسبات الطقسيّة في الهيكل. فكان بارًّا في سلوكه وصامتًا في أوقات المِحن والاضطرابات التي أحاطت به من الضيق والتهديد. لذا شعر بحزن شديد إزاءَ حَمَل مريم الذي أقلقه وجعله يفكّر نهارًا وليلاً في ما ينبغي أن يفعله تجاه مريم. هل يتركها سرًّا، ويتنحّى بدون أن تتأثر مريم بقراره؟ وما هو مستقبلها وهي فتاة بسيطة وخلوقة؟

حالة يوسف النفسيّة كانت مضطربةً جدًّا بما يفعل وفكّر بالذي سوف يحصل إذا تركها في وسط الطريق. فلم يرِدْ أَن يَشهَرَ أَمْرَها بل قرّر "أن يُطلِّقَها سِرًّا" لأنّه كان يعرف مريم جيّدًا ويعرف سيرتها الحسنة وأخلاقها وسلوكها في ذلك الوقت، وخصوصًا أنّ مريم كانت فائقة القدرة على الفهم والاستيعاب.

إزاءَ كلّ هذا الاضطراب استطاع القدّيس أن يتأمّل في تلك الأحداث. فقد أراد الله أن يُطمئنه، فكشف له عن مخطّطه الالهيّ، وما هي رسالته، ودوره في إرادة الله. فاستمع إلى كلمة الله بكلّ كيانه، ليستطيع أن يدخل في مخطط الله الخلاصيّ، فما كان عليه إلّا قبول الإصغاء للملاك من خلال الأحلام، فأصبح رجل الأحلام.

أراد الله أن يوضح لنا إيمان يوسف وثقته بالله العظيمة التي جعلت من الأحلام واقعًا لمسيرة شخص متّكل كليًّا على الله، حتى يستطيع أن يختبر تلك المسيرة، ويفهم الأحداث التي تجري في حياته، ولا يسمح للشكّ ان يتمركز في داخله. فكان من الضروريّ أن يتميّز يوسف بميزة مهمّة تتغلّب على الشكّ والقلقّ اللذين كانا في فكره وعقله. وهي ميزة الإيمان والثقة والشجاعة. فهي ميزة تقوّي الإنسان بشكل خاصّ عند مواجهة الصّعوبات. فالصعوبات تحديدًا هي التي تكشف فينا أحيانًا عن إمكانيّات لم نكن لنعتقد أنّنا نملكها. وهي التي تخلق فينا الأمل والرجاء القويّ الذي يجعلنا نميّز ونختار ما هو الأفضل لمسيرتنا الحياتيّة.

غالبًا ما نتساءل خصوصًا عندما نقرأ "أناجيل الطفولة"، لماذا لم يتدخّل الله بطريقة مباشرة وواضحة مع مختاريه، بل يتدخّل من خلال الأحداث والأشخاص أو من خلال ملاك، كما فعل مع يوسف ومريم وغيرهما من الأنبياء وآباء الكتاب المقدّس. هكذا اختار الله هذا الأسلوب مع يوسف أيضًا الذي من خلاله أدخله في تاريخ الفداء.

يوسف هو المعجزة الحقيقيّة الذي اختاره الله ليخلّص الطفلَ وأمَّه. فقد ظهر له الملاك في الحلم ليكون سببًا يستطيع يوسف من خلاله أن يتّكل على الله. وهذا يعني أن يوسف هو الطريق الوحيد التي أرادها لتنفيذ

خلاص الإنسان. إذًا، هكذا كان اعتناء الله وعدم تخلّيه عن رجله ومساعدته ودعاه الى ترك الخوف والقلق جانبًا والاستسلام الى مشيئته، فخلق الملاك كلمات تعزية لراحة البال والاطمئنان والسلام الداخليّ والفرح في نفس يوسف، لقبول واقعه الجديد والترحيل والتهجير والفقر والجوع.

نعتقدُ أنّ القدّيس يوسف هو حقًّا شفيع خاصّ لكلّ الذين يعانون من الشك والقلق في حياتهم الداخلية، ومَن يعانون التهجير القسريّ في بعض الأحيان، فيضطرّون إلى مغادرة أرضهم بسبب الكراهية والاضطهاد والبؤس والحسد... فلا يسمحون لله أن يتدخّل في حياتهم ولا يسلّمون أمرهم له كما فعل القديس يوسف في نهاية كلّ حدث من حياته، وعمل كما أمره الربّ فكان يوسف مطيعًا بلا تذمّر ولا حوار أو استفزاز، بل كانت طاعته آنية تعكس ثقته بالله وتسليم أمره وذاته وعائلته بالكامل بين يدي الله، بدون أن يشعر بأيّ قلقٍ أو شك ولا ضمانات له. وكان يكتفي بأن يرى الطفل وأمه بخير وأنّ المخطّط الخلاصيّ يسير نحو الله. لقد تغلّب على مأساته عبر الطاعة، وأنقذ مريم.

نلاحظ في كلّ المناسبات أنّ يوسف هو الذي يتّخذ القرار كأيّ قائد أو ربّ أسرة صالح، إذ يتّكل على قدرة الله في حياته. فالشك والإضطرابات التي عانى منها كانت آنيّة، ولا محلّ لها في حياته، بل العكس، فقد كانت حياة القديس كلّها فرح وسلام وراحة بال، بعد ما أخذ مريم والطفل إلى بيته، وشاهد كلّ الأحداث الميلاديّة . لذا نقول إنّ فرح القديس يوسف هو فرح المسؤوليّة، فرح الأبوّة، وفرح التواضع وروح الخدمة أمام ابن الله.